

الفصل الثاني

تراجم علمية وأدبية

١

علماء وأدباء يتحدثون عن أنفسهم

لعل أقدم حديث لأدباء العرب عن أنفسهم هو ما أُثِرَ عن شعراء العصر الجاهلي في فخرهم وحماستهم ، وهو حديث شعراء لا يراد به إلى حكاية الواقع تماماً ، بل تدخله المبالغة والتهويل ، وظل ذلك غالباً على الشعراء في العصور الإسلامية المختلفة .

وحيثما أخذ العرب يدوّنون أخبار شعرائهم وأدبائهم وعلمائهم كانوا ينقلون عنهم مباشرة كثيراً مما يدوّنونه ، على نحو ما نعرف عن الأصمعي مثلاً ، فإن كتب الأدب تتناقل عنه أخباراً مختلفة مع الرشيد ووزرائه وأدباء عصره وعلمائه . وإذا تصفحنا كتاب تراجم مثل الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني وجدنا كثيراً مما يقصّه عن الشعراء والمغنين يُستعملُ عن أفواههم ، وخير مثل لذلك ترجمة إبراهيم الموصلي مغني الرشيد المشهور . فإنه يروي أخباره فيها عن ابنه إسحق ، وكثير منها مما حدثّه به أبوه .

ونفس كتابات الأدباء في العصر العباسي كثيراً ما تتضمن أخبارهم وبعض وقائع حياتهم ، ولعل الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م أكثر من عنى حتى عصره بتصوير نفسه في كتاباته . بحيث نستطيع أن نستخرج من كتبه ورسائله أكثر الخيوط التي ألفت نسيج حياتها من الوجهتين الثقافية والمعاشية . ويجرى معه في هذا الطريق ممن كانوا يعجبون به وبأسلوبه أبو حيان التوحيدي المتوفى سنة

٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م إذ كان يعاني غربة في أهل زمانه ، ولم يجد من بينهم من يعرف فضله وعلمه وأدبه، ويقدره حق قدره، فتولى ساخطاً مغضباً، يقصّ قصته، من لقائه للوزراء وغيرهم ، ممن وضعوه دون منزلته ، وأخروه عن مرتبته ، وفي مقدمتهم الوزيران المشهوران: ابن العميد والصاحب بن عباد، فألف فيهما كتاباً سماه مثالب الوزيرين ، روى فيه تجربته معهما، وهي تجربة قاسية، تحوّل وصفها عنده إلى سياط من الكلام، تصور محنته فيهما وسوء حظه . وكان على ما يظهر متعجباً ثقيل الروح ، فازورّ عنه الوزيران وبيذه الناس ، وتصور ذلك رسالته « في الصداقة والصديق » يقول :

« فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق، والله لربما صلّيت في المسجد فلا أرى إلى جنبي من يصلّي معي ، فإن اتفق فبقال أو عصّار أو نداءف أو قصاب ومن إذا وقف إلى جانبي أسدّرتني بصنانه وأسكرني بنتنته، فقد أمسيت غريب النحلّة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقفاً ما لا بد من حلوله ، فشمسُ العمر على شقماً، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول . »

وبلغ من سخطه على الناس أن أحرق كتبه في أواخر حياته، وكتب إليه بعض أصحابه يعذله على صنيعه ، فأجابه برسالة طويلة ، ومن قوله فيها :

« إني فقدت ولدأ نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً مشيباً ، فشقّ علىّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها .. وعياني منهم في الحياة هو الذي يحقّق ظني بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحّ لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطي الرياء والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحرز أن

يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم » . ومع ذلك فقد بقيت لنا بعض كتبه ، وهي تفيض بهذه الإشارات إلى حاله التعسة .

وقد أخذت في عصره تكثر كتب الجغرافيا والرحلات ، وهي تتضمن كثيراً من أخبار أصحابها وحوادثهم في البلدان المختلفة التي كانوا يشاهدونها ويلمونها بها واصفين أوراقلين . ويُجمل لنا المقدسي في أوائل كتابه « أحسن التقاسيم » ما عاناه في رحلاته ، حتى كان يتنكر كثيراً ويدخل في غير طائفة من الطوائف الإسلامية ، يقول :

« لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكُدُوبة
 "الشحاذة" وركوب الكبيرة ، فقد تفقّهت وتأدّبت وتزهدت وتعبدت . وفقّهت
 وأدّبت ، وخطبت على المنابر ، وأذّنت على المنائر ، وأمت في المساجد ،
 وذكرت في الجوامع ، واختلّفت إلى المدارس ، ودعوت في المحافل ، وتكلمت
 "ناظرت" في المجالس . وأكلت مع الصوفية المرائس ، ومع الخانقائين الأثران .
 وطُردت في الليالي من المساجد ، وسمت في البراري ، ونهت في الصحاري ،
 وصدّقت في الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ، وصاحبت عبّاد جبل لبنان ،
 وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد ، وحملت على رأسى الزنبيل . وأشرفت
 مراراً على العرق ، وتُطع على قوافلنا الطرق ، وخدمت القضاة والكبراء ، وخطبت
 السلاطين والوزراء ، وصاحبت في الطرق المُسّاق ، وبعث البضائع في الأسواق ،
 وسمّنت في الحبوس ، وأخذت على أتى جاسوس ، وعابنت حرب الروم في الشواني
 " السفن الحربية " وضرب النواقيس في الليالي .. وكم نلتُ العز والرفعة : ودُبّر
 في قتلي غير مرة ، وحججت وجاورت ، وغزوت وربطت . . وكُسميت خِلمع
 الملوك وأمروا لي بالصلوات ، وعريت وافتقرت مرات . . ورُميت بالبدع
 وانتهمت بالطعم » .

وكل هذه تجارب صادفته في رحلاته الجغرافية . وكثيراً ما يقف

الجغرافيون والرحالة في كتبهم ، فيصورون تصويراً تاماً ما يصادفهم من أحداث الحياة وما يلم بهم من خبائرها وغرائبها . ورحلتنا ابن جبّير وابن بَطْوَطة من أطرف الرحلات التي تشتمل على مادة بديعة في هذه الجوانب ، وخاصة أنهما سافرا رحلتيهما في شكل مذكرات يومية . ومن مصنفي الأندلس الذين ضمنوا مؤلفاتهم تجاربهم وخبيراتهم ابنُ حَزْمُ المتوفى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وربما كان أكبر عقلية إسلامية ظهرت هناك ، وله مؤلفات كثيرة في الفقه وأصوله وفي الملل والنحل وفي التاريخ والسير وفي الفلسفة ومراتب العلوم والمنطق والأخلاق والطبائع . وقد نُشرت له كتب ورسائل مختلفة يتداولها الناس ، وهو يصارحنا في كثير من جوانبها بخلقه وتجاربه ، غير سائر لتقيصة فيه ، وأهم كتاب حملّه اعترافاته والبوح عن نفسه كتاب « طوق الحمامة في الألفة والألاف » وهو يعنى بالألفة المحبة ، وقد بحثها من جميع أطرافها . بحثها في أصولها وصفاتها وأعراضها ، ولم يطلق الكلام إطلاقاً ، بل عرضه على التجربة والخبرة في نفسه وسكان قرطبة لعصره من أمراء وعلماء وأدباء . ويهمننا ما اعترف به عن نفسه . فمن ذلك أننا نجده في أثناء حديثه عن الحب وأنه إذا أحب صفة في محبوب له لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها ، يقول : « دَعَى أَخْبِرُكْ أُنَى أَحْبَبْتُ فِي صِبَايَ جَارِيَةَ لِي شَقْرَاءَ الشَّعْرَاءِ اسْتَحْسَنْتُ مِنْ ذَلِكَ انْوَاقَ سَرْدَاءِ الشَّعْرَاءِ . وَلَوْ أَنَّهُ عَلَى الشَّمْسِ أَوْ عَلَى صُورَةِ الْحَسَنِ نَفْسِهِ ، وَإِنِّي لِأَجِدُ هَذَا فِي أَصْلِ تَرْكِيبِي مِنْ ذَلِكَ الرِّقَّتِ لَا تَوَاتَيْتَنِي نَفْسِي عَلَى سِوَاهِ وَلَا تَحِبُّ غَيْرَهُ أَلْبَتَّةَ . وَهَذَا الْعَارِضُ بَعِينَهُ عَرْضُ لِأَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَى إِلَى أَنْ وَاوَاهُ أَجَلُهُ . » . ويقول : « لَقَدْ شَاهَدْتُ النِّسَاءَ وَعَلِمْتُ مِنْ أَسْرَارِهِنَّ مَا لَا يَكَادُ يَعْلَمُهُ غَيْرِي . لِأَنِّي رُبَيْتُ فِي حَجُورِهِنَّ ، وَنَشَأْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَلَمْ أَعْرِفْ غَيْرِهِنَّ ، وَلَا جَالَسْتُ الرِّجَالَ إِلَّا وَأَنَا فِي حَدِّ الشَّبَابِ . وَهِنَّ عَدَلَمَنِي الْقُرْآنَ وَرَوَيْتَنِي كَثِيرًا مِنَ الْأَشْعَارِ وَدَرَبَنِي فِي الْخَطِّ ، وَلَمْ يَكُنْ وَكُنْدِي ” غَرْضِي “ وَإِعْمَالُ ذَهْنِي مَدَّ أَوَّلَ فَهْمِي وَأَنَا فِي سِنِّ الطُّفُولَةِ إِلَّا تَعْرِفُ أَسْبَابَهُنَّ وَالْبَحْثُ عَنْ أَخْبَارِهِنَّ وَتَحْصِيلُ ذَلِكَ . وَأَنَا لَا أُنْسِي شَيْئًا مِمَّا أَرَاهُ مِنْهُنَّ ، وَأَصْلُ

ذلك غير شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به ، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل .

ولعل القارئ يعرف أن ابن حزم نشأ في بيت مترف ، فقد كان أبوه من وزراء الأمويين في قرطبة ، ومن أجل ذلك نشأ هذه النشأة الطريفة في الحریم وبين النساء ، وكن حينئذ مثقفات ، فرببتهن وقسمن على تعليسه وقام هو على دراستهن ومعرفة طباعهن والوقوف على أخبارهن مما أتاح له فرصة واسعة لوصفهن في هذا الكتاب وإيراد طائفة من حكاياتهن هن ونساء قرطبة الأخريات اللاتي كن يتحدثن عن حببهن . ونراه يقول في باب الوصل :

« ولقد جرّبتُ اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للذنو من السلطان ولا للسال المستفاد ولا للوجود بعد العدم ، ولا للأوبة بعد طول الغيبة ، ولا للأمن بعد الخوف ولا للروح على المال ، من الموقع في النفس ما للوصل ، لا سيما بعد طول الامتناع . وحلول الحجر حتى يتأجج الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاء . وما أصناف النبات بعد غيب القَطْر ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجّسج ولا خريير المياه المتخللة لأفانين التوار ولا تأنق التصور البيض قد أهدقن بها الرياض الخضمر بأحسن من وصل حبيب قد رُضيت أخلاقه وحمدت غرائزه . » . ويقول في باب الحجر :

« حضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف المهين بعظيم الذنوب مع الثمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيّمان ، بين يدي محبوب غضبان ، قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا أجيّب إلى الدنيّة ولا أساعد على الخضوع ، وفي الثانية أذل من الرداء . وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل ، وأغنم فرصة الخضوع لو نجح . وأتحلّل بلساني ،

وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفنن القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الرضى .

ويتحدث عما يصيب الحبين من اليبس الذى يُعَدُّ شَجِيًّا فى القلب وغُصَّة فى الحلق ، ويعرض لبين الموت الذى لا يرجى للمحبيب بعده إياب ، وهو القرحة التى لا تبرأ والوجع الذى يتجدد ، يقول :

« دعنى أخبرك أنى أحدٌ من دُهى بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لى . . كانت أمنية المتمنى وغاية الحسن خُلُقاً وخُلُقاً وموافقة لى ، وكنت أبا عدِّرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدار ، واخترمها الليلى ومَرُّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسنى حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ولا تنفّر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها ” بكائها“ . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن . . وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنستُ بسواها . »

وما نزال ننتقل فى الكتاب بين اعترافات ابن حزم عن نفسه ، ومن ذلك ما يرويه عن حب عفيف له بفتاة تعلقها قلبه وهو لا يزال فى مِيعَةِ الصبا ، فتمنعت عليه ، ولم يزده ذلك بها إلا تعلقاً وجباً ، يقول :

« وإنى لأخبر عنى أنى ألفت فى أيام صباى ألفة المحبة جارية نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخبرها ودمايتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مُسَبِّلة السُّنْبُر ، فقيدة الدام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الخدر ، نقية من العيوب ، دائمة القطُوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة العقود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النَّفَّار ، لا توجّه الأراجى ” جمع رجاء“ نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرّس للأمل لديها . . على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحت إليها وأحببتها حباً

مفراطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من فيها لفظة غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك إلى شيء ألبته . . وإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها متعرضاً للذنو منها ، فما هو إلا أن تراني في جوارها ففتركت ذلك الباب وتقصد غيره في لطف حركة ، فأتعد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه . فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره . وكانت قد علست ككلى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لأنهن كن عدداً كثيراً .

وهذه الاعترافات في كتاب طوق الحمامة تجعله طرفة حقيقية ، إذ قلما يعترف العرب في كتبهم بوقائعهم اليومية على هذا النحو الذي نجده عند ابن حزم . على أن هذا الكتاب ليس ترجمة شخصية كاملة لصاحبه ، فإنه إنما يسوق لنا فيه جانباً واحداً من حياته هو جانب حبسه ، وكثيراً ما يتحدث عن وقائع لبعض المحبين دون أن يسميهم ، وأكبر الظن أنه هو نفسه صاحب هذه الوقائع ، وخاصة أنه يسوق دائماً وراءها أشعاراً تصور حالة الحب أو المحبوب في الواقعة .

ولا نلتقي حتى عصر ابن حزم بترجمة شخصية كاملة لأديب ولا لعالم ، وربما وجدت تراجم لهم ، ولكنها لم تصل إلينا ، وأول ترجمة حفظتها لنا الكتب ترجمة علي بن زيد البيهقي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م وهو مؤرخ اشتهر بكتابين أحدهما في التاريخ العام ويسمى « مشارب التجارب » وهو ذيل على تاريخ ابن مسكويه ، والثاني في تاريخ الشعراء ويسمى « وشاح الدُّمِّية » وهو ذيل على دُمِّية القمصر للباخرزي ، وهي بدورها ذيل على كتاب اليتيمة للثعالبي .

وقد ترجم البيهقي لنفسه في كتابه « مشارب التجارب » وهو مفقود ، إلا أن ياقوت نقل لنا في كتابه « معجم الأديباء » هذه الترجمة . ونراه في مطلعها يرفع نسبه إلى الفاكه بن ثعلبة الأوسى ، ويستمر فيصل به إلى آدم ! ويقول إنه ولد سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م في قصبة المسابزوار من ناحية بيتهق ، وهي من ضواحي نيسابور

في خراسان، وقد أسلمه أبوه إلى الكتّاب، ثم رحل به إلى قرية شِسْتِمَنْد من قرى تلك الناحية حيث كان له ضياع بها، وفيها أكمل دراسته النحوية واللغوية، وحفظ أشعار الحماسة والمعلقات والمتنبي ثم انتقل إلى نيسابور في سنة أربع عشرة وخمسةائة، وعكف على دروس العلماء بها من لغويين، ونحويين، ومحدّثين، ومتكلمين. ويخصي لنا الكتب التي درسها في كل فن. وفي سنة سبع عشرة وخمسةائة مات أبوه فانتقل إلى مرو يتابع دراسته، وتزوج بها، وفي سنة ٥٢١ هـ عاد إلى نيسابور. وأصهر إلى واليها ومشرف مملكتها، وصار مشدوداً بوثاق الأهل والأولاد سنين. وتولى قضاء بيهق سنة ٥٢٦ هـ ثم تركها إلى الرى وتعلق بدراسة الحساب والجبر والمقابلة. وتحول إلى بخارى في خراسان ثم إلى نيسابور ثم إلى سمرخس وهو في أثناء ذلك يدرس على العلماء. ويتحول إلى بيهق ثم إلى نيسابور حيث أخذ يدرس للطلاب في مساجدها، وظل على ذلك من سنة ٥٣٧ هـ إلى سنة ٥٤٩ هـ إذ ارتحل عنها إلى بيهق لزيارة والدته. وقد مات في تلك السنة كما مات ابنه أحمد. وهنا نراه يذكر ثبوت تصانيفه، وقد بلغت نحو سبعين كتاباً، أكثرها في الشريعة وشروح الأشعار.

ومن الأدباء العلماء الذين ترجموا لأنفسهم في القرن السادس الهجرى (الثاني عشر الميلادى) العماد الأصبهاني، وأودع ترجمته كتابه «البرق الشامى» وهو مفقود، غير أن ياقوت احتفظ لنا في معجمه بخلاصة هذه الترجمة. ومن ترجموا أيضاً لأنفسهم في هذا القرن ابن الجوزى، ولم يفرد ترجمته برسائده، وإنما أتى بها عرضاً في رسالة سماها «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد» وهي نصيحة موجهة إلى ابنه، ولكنه ضمها غير قليل من أخباره ومؤلفاته، ولعل من الخير أن نقف عندها وعند صاحبها قليلاً.

ابن الجوزي

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م وهو مؤرخ جليل، له في التاريخ كتاب المنتظم وهو مطبوع، وقد تناولت مؤلفاته أكثر علوم عصره، وشهرته إنما ترجع إلى أنه كان فقيهاً واعظاً، إذ كان له أثر بالغ في وعظ الناس بمسقط رأسه «بغداد» وإرشادهم، وقد رأى ابن جبير صاحب الرحلة المشهور مجلساً من مجالسه، فراه روعةً شديدة حتى قال فيه:

«آية الزمان، وقرة عين الإيمان. رئيس الحنبليّة، والمختص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمّة الكلام في النظم والنثر. والغائص في بحر فكره على نفائس الدر. فأما نظمه فرضي الطباع، مهتيازي الانطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بيقسّ وسحبان» ثم يصف موعظة له ويقول إنه بعد أن فرغ منها «أتى برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح. . فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، وبذكراها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبحّ البحر. ونعتسف مغازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الراجحة، والوجهة المفلحة الناجحة. . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه» .

وابن الجوزي يبدأ رسالته «لفتة الكبد» بأنه وجد في ابنه أبي القاسم توانياً عن الجحد في طلب العلم فكتب له هذه الرسالة يحثه بها، ويجرّكه على سلوك طريقه في

كسب المعرفة ، وقد قسمها فصولاً ، تحدث في الفصل الأول عن العقل وأنه يهدى صاحبه إلى أنه مكلف أمام ربه بفرائض ينبغي أن يؤديها ، ويقفه على فضائل ينبغي أن يتحلى بها ، وليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم والعمل . ودعاه في الفصل الثاني إلى دراسة الفقه حتى يعرف ما يجب عليه من الوضوء والصلاة والزكاة والحج ، وحتى يندفع بعد ذلك في الترقى إلى الفضائل مستعيناً بربه وطاعته لاجئاً إلى توفيقه ورعايته . وفي الفصل الثالث يسوق له من أحواله هو ما قد يرشده في دنياه ، وهنا يفيض في الترجمة لنفسه ، يقول :

« وإني لأذكر لك بعض أحوالي لعلك تنظر إلى اجتهادي ، وتسال الموفق لي ، فإن أكثر الإنعام علي لم يكن بكسبي ، وإنما هو من تدبير اللطيف بي ، فإني أذكر نفسي ولي همة عالية ، وأنا في المكتب ابن ست سنين ، وأنا قرين الصبيان الكبار ، قد رزقت عقلاً وافرأ في الصغر يزيد على عقل الشيوخ ، فما أذكر أنني لعبت في طريق مع الصبيان قط ، ولا ضحكت ضحكاً خارجاً ، حتى إني كنت ، ولي سبع سنين أو نحوها ، أحضر راحة الجامع ، فلا أتخير حلقة مشعبذ ، بل أطلب المحدث ، فيتحدث بالسير ، فأحفظ جميع ما أسمعه ، وأذهب إلى البيت فأكتبه . ولقد وفق لي شيخنا أبو الفضل بن ناصر رحمه الله ، وكان يحملي إلى الشيوخ ، فأسمعي المسند ”مسند ابن حنبل“ وغيره من الكتب الكبار وأنا لا أعلم ما يراد مني ، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلسنتي ، فناولني ثيابها ، ولازمته إلى أن توفي رحمه الله ، فنلت به معرفة الحديث والنقل . ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الحسر وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً ، وأقعد حجرة ”ناحية“ من الناس إلى جانب الرقة ، فأتشاغل بالعلم . ثم ألهمت الزهد فسردت الصوم ، وتشاغلت بالتقليل من الطعام ، وألزمت نفسي الصبر ، فاستمرت . وشمرت ولازمت ”العلماء“ وعالجت السهر ، ولم أقنع بغير من العلوم ، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث ، وأتبع الزهاد . ثم قرأت اللغة ولم أترك أحداً ممن يروى ويعظ ولا غريباً يقدم إلا وأحضره ، وأتخير الفضائل .

وكننت إذا عرض لي أمران أقدم في أغلب الأحوال حقّ الحق . فأحسن " الله " تدبيرى وتربيتى ، وأجرانى على ما هو الأصلح لي ، ودفع عني الأعداء والحساد ومن يكيدنى ، وهياً لي أسباب العلم ، وبعث إلى الكتب من حيث لا أحتسب ، ورزقنى الفهم وسرعة الحفظ والخطّ وجودة التصنيف ، ولم يعوزنى شيئاً من الدنيا ، بل ساق إلى من الرزق مقدار الكفاية وأزيد ، ووضع لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامى في نفوسهم فلا يرتابون بصحته وقد أسلم على يدى نحو مائتين من أهل النعمة . ولقد تاب في مجالسى أكثر من مائة ألف .. ولقد كنت أدور على المشايخ لسماح الحديث ، فينقطع نَفَسى من العَدْوِ لثلاث أسبوع .. وما أنت قد ترى ما آلت حالى إليه، وأنا أجمعه لك في كلمة واحدة، وهى قوله تعالى " واتقوا الله ويعلمكم الله " فانتبه يا بنى لنفسك واندم على ما مضى من تفريطك .

وتتعاقب النصائح وفي أثنائها يسوق ابن الجوزى أخباره ، فمن ذلك قوله : « اعلم يا بنى أن أبى كان موسراً وخلف ألوفاً من المال ، فلما بلغت دفعوا لى عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا لى : هذه الزركة كلها ، فأخذت الدنانير واشتريت بها كتباً من كتب العلم ، وبعث الدارين وأنفقت ثمنها في طلب العلم ، ولم يبق لى شىء من المال . وما ذلّ أبوك قط ولا خرج يطوف في البلدان كغيره من الرعاظ ولا بعث رقعة إلى أحد بطلب منه شيئاً ، وأموره تجرى على السداد " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب " . »

وعلى هذا النحو نطلع في هذه الرسالة على نشأة ابن الجوزى ونعرف مدى إكبابه على الدرس والتحصيل وما أخذ به نفسه منذ صغره بالفضيلة والسيرة الزكية ، ينشد ما عند الله ، حتى أصبح واعظاً ، وأصبح لوعظه تأثيره في النفوس لأنه يصدر فيه عن عقيدة صحيحة . وليس هذا كل ما نجده في الرسالة ، فنحن نجد فيها أيضاً بعض مصنفاته ومؤلفاته إذ يقول :

« وقد علمت يا بنى أنى قد صنفت مائة كتاب ، فمنها التفسير الكبير

عشرون مجلداً ، وتهذيب المسند عشرون مجلداً ، وباقي الكتب من كبار وصغار تكون خمسة مجلدات ومجلدين وثلاثة وأربعة وأقل وأكثر . كفيّتك بهذه التصانيف عن استعارة الكتب وجمع المهم في التأليف ، فعليك بالحفظ ، وإنما الحفظ رأس المال ، والتصرف ربح ، واصدق في الحالين في الالتجاء إلى الحق سبحانه؛ فراع حدوده ، قال الله تعالى : ” إن تنصروا الله ينصركم ” ” فاذكروني أذكركم ” ” وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ” . . . عليك بكتاب منهاج المريدين فإنه يعدك السلوك فاجعله جليساك ومعلمك ، وتلدح كتاب صيد الخاطر فإنك تقع بواقعات تصلح لك أمر دينك ودنياك ، وتحفظ كتاب جنة النظر ، فإنه يكفي في تلقيح فهمك للفقهاء ، ومضى تشاغل بكتاب الحدائق أطلعك على جمهور الحديث ، وإذا التفت إلى كتاب الكشف أبان لك عن مستور ما في الصحيحين ” صحيحى البخارى ومسلم ” من الحديث ، ولا تتشاغلن بكتب التفسير التى صنفها الأعاجم ، وما ترك المعنى وزاد المسير لك حاجة فى شىء من التفسير ، وأما ما جمعته لك من كتب الوعظ فلا حاجة لك بعدها إلى زيادة أصلا .

وبذلك يضيف ابن الجوزى إلى تعريفنا بنشأته وتربيته وسيرته تعريفنا ببعض كتبه فى التفسير والحديث والفقهاء والوعظ ، وقد نُشر له فى عصرنا غير كتاب ، وهو حقاً أحد العلماء الأفاضل الذين أنجبهم بغداد فى العصر العباسى الثانى .

ونخصى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فتكثر تراجم الأدباء والعلماء ، إذ تصبح الترجمة الشخصية سنة متبعة بين كثيرين منهم ، وخاصة من ألقوا فى كتب التراجم العامة ، مثل ابن سعيد صاحب كتاب « المغرب فى حلى المغرب » فقد ضمّن هذا الكتاب ترجمته وترجمة أبيه وجدته وطائفة من أسرته ، وربما كان خير من أفرد لنفسه ترجمة فى هذا القرن أبا شامة .

أبو شامة المقدسى الدمشقى

هو شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م وهو محدث ومؤرخ كبير ، اشتهر فى عصرنا بكتابه « الروضتين فى تاريخ الدولتين » دولة نور الدين ودولة صلاح الدين الأيوبى ، وهو خير من أرخ لهاتين الدولتين ، وأتبع هذا التاريخ بذيل له ترجم فيه لرجال القرنين السادس والسابع للهجرة ، وحين تحدث عن سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م ومن توفوا فيها ذكر أنه ولد فى تلك السنة . ولم يكتف بذلك ، بل ترجم لنفسه ترجمة ضافية ذكر فى أولها أنه عُرِفَ بأبى شامة لأنه كان به فعلا شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر ، وقال إنه ولد بدرَب القواخير بدمشق ، وأصل جده أبى بكر من بيت المقدس . وأفاض فى الحديث عن آبائه وأعمامه ، ثم أخذ يتحدث عن نفسه بضمير الغائب ، فقال إنه بدأ يحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ فى معرفة القراءات السبع والفقه والعربية والحديث وأيام الناس ، وحج مع والده سنة إحدى وعشرين وستائة ، ثم حج فى السنة التى بعدها أيضاً ، ثم سافر إلى بيت المقدس ورحل منه إلى الديار المصرية سنة ست وعشرين وأخذ عن شيوخها فى مصر والقاهرة ودمياط والإسكندرية . وعاد إلى دمشق عاكفاً على الاشتغال بالعلم وتحصيله والتأليف فيه .

ويقول إنه كان فى صغره يرزق إلى منزلة العالم الكبير أبى منصور بن عساكر الدمشقى ويطمح إلى أن تصبح له رتبته فى العلم ونشره وانتفاع الناس بدروسه وفتاويه ، فبلغه الله فى ذلك فوق ماتمناه . ولكنى يقفنا على ما وصل إليه من حُظوة فى التقوى والعلم

وعند الناس يسوق إلينا طائفة من الأحلام والمنامات رؤيت له ، أو رآها هو لنفسه ، يقول :

« ورؤيت له منامات حسنة كانت مبشرات له بما وصل إليه من العلم وما يرجوه من الخير ، منها أن والدته ، رحمها الله ، أخبرته ، وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب ، وأبوه رحمه الله يعجب من حبه المكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان ، فقالت الوالدة : لا تعجب فإني لما كنت حاملا به رأيت في المنام كأنني في أعلى مكان من المثذنة عند هلالها ، وأنا أؤذن ، فقصصتها على عابر "مفسر للأحلام" فقال : تلدين ذكراً ينتشر ذكره في الأرض بالعلم والخير . ورأى هو في صفر سنة أربع وعشرين وسبعمائة كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قد أقبل إلى الشام منجداً لأهله على الفرنج ، خلطهم الله ، وكان له به خصوصية من إفضاء أمره إليه والتحدث معه في أمور المسلمين وهو يمشى إلى جانبه ملاصقاً منكبه ، حتى كان الناس يسألونه عنه وعمما يريد أن يفعل وهو يخبرهم ، وكأنه واسطة بينه وبين الناس . وفي هذه السنة رأى أيضاً كأنه والفقير عبد العزيز بن عبد السلام ، سلمه الله ، داخل باب الرحمة بالبيت المقدس ، وقد أراد فتحه ، وثم من يمنع من فتحه ويدفعه لينغلق ، فما زالوا يعالجان الأمر ، حتى فتحا مصراعيه فتحاً تاماً ، بحيث أسند كل مصراع إلى الحائط الذى خلفه . . ورآه المهتار هلال بن مازن الحراني متقلداً هيكله وهو يقول :

انظروا فلاناً كيف تقلد كلام الله . ورأت امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا ، وهى قرية من قرى غوطة دمشق ، وكانهم سئلوا ما شأنهم قالوا ننتظر النبي صلى الله عليه وسلم يصلى بنا ، قالت وحضر تعنى مصنف هذا الكتاب ! ! ورأى الصلاح الصوفي أول ليلة من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وسبعمائة كأن مصنف الكتاب متوجه إلى الحج ومعه من الزاد جميع ما يحتاج إليه [وهو متزود] تزوداً تاماً يعجب منه الرائي . ورأى حسن الحجازى فى شهر رمضان سنة سبع وخمسين وسبعمائة كأن قائله فى عالم الغيب

لا يراه بل يسمع صوته يقول : الشيخ أبو شامة وليّ هذا الوقت . . ومن ذلك منامات حسنة رآها له أخوه الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل ، وهو أسن منه بنحو تسع سنين ، وكان من الصالحين رأى والدهما رحمه الله يقول له : عليك بالعلم ، انظر إلى منزلة أخيك ، فنظر ، فإذا هو في رأس جبل ، والوالد والرأى يمشيان في أسفله . ورأى في صفر سنة سبع وخمسين وسبعمائة كأن مصنف الكتاب متمسك بجبل قد دُلِّيَ من السماء وهو مرتفع فيه ، فسأل إنساناً عن ذلك في المنام ، فانكشف لهما البيت المقدس والمسجد الأقصى ، فقال له ذلك الإنسان : من بَسَمَى هذا المسجد ؟ فقال : سليمان بن داود ، فقال : أُعْطِيَ أخوك مثل ما أُعْطِيَ سليمان ، فقال له : كيف ذلك ؟ فقال : أليس سليمان أوتي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ؟ أليس أُعْطِيَ كذا وكذا وعدد أنواع ما أُوتِيَ ، فقال : بلى ، قال : وكذا أخوك أوتي أنواعاً من العلم كثيرة ! . ورآه الشرف الصرخدى فوق سطح بيت منعزل وهو يؤذن ، ثم بعد الأذان قرأ " واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب " . ورأى أيضاً كأن القيامة قد قامت ومصنف الكتاب راكب على حمار وهو مسرع ، فقيل له في ذلك ، فقال : أطلب النبي صلى الله عليه وسلم على الحوض . ورأى الشرف بن الرئيس أيضاً القيامة ووصف من أهولها ، قال : ورأيت فلاناً يعنى صاحب هذا الكتاب ، فسألته عن حاله ، فقلت له : ماذا لقيت ؟ قال : لقيت خيراً . وإنما سطرت هذه المنامات وغيرها تحذيراً بنعم الله تعالى كما أمر سبحانه في قوله تعالى " وأما بنعمة ربك فحدث " وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له " .

وهذه الرؤى في جملتها تدل ، إن صحّت على صلاح أبي شامة وتقواه وأنه عُرِفَ بذلك في معاصريه ، حتى كانت تقترن آراؤهم فيه برؤاهم ، أو يقترن شعورهم بلا شعورهم . ويذكر شيوخه وأساتذته الذين تلقى عنهم العلم ، وخاصة علم الشريعة والحديث ، في إجمال ، ثم يذكر مصنفاته ، وهي كثيرة ، منها ما

يتناول بعض مسائل الشريعة والقراءات والتفسير والحديث ، ومنها ما يتناول النحو واللغة . ومنها ما يتناول التاريخ مثل كتاب الروضتين . ونجد بين كتبه مختصرات كثيرة مثل مختصر تاريخ بغداد . وفي هذا ما يدل على أننا قد وصلنا إلى عصور الجُمود في الفكر العربي ، فقلما كان هناك من جديد . بل أصبحت صناعة القوم تكرر الماضي . يوجزونه إلى أبعد حدود الإيجاز ، ثم يعرّدون فيسطونه بالشروح والحواشي . وهم في هذا وذاك قلما يضيفون جديدا وإنما يعقدون ، ويحاولون أن يفكوا ما عقده . ونجد بين مؤلفاته أرجوزة في الفقه ، وهي رمز لما شاع في هذا العصر ومن قبله وبعده عند علماء العرب من نظم العلوم تسهيلا للحفظ . وهو نظم يوضع في عبارات موجزة شديدة الإيجاز . ثم يشرحونها على طريقتهم في شرح المتون الثرية . ولم ينظم في الفقه فقط ، بل نظم أيضاً قواعد علم العروض والتوافي كما نظم مفصل الزمخشري في النحو ، ونظم شيئاً من متشابه القرآن الكريم . وكل هذا النظم تلخيص واختصار ، وهو تحول بالشعر عن غايته من التعبير عن المعاني الوجدانية إلى معان علمية خالصة ، لم يوضع لها ، وإنما وُضع لها النثر الواضح ، حتى تفهم . وكل ذلك يدل على أن القوم عُنُوا بالتُّراث القديم مما جعلهم يهتمون بتلخيص أنواع الثقافة الماضية ، تارة بالنثر ، وتارة بالشعر ، وقلما أضافوا جديداً وخاصة في الأدب والشعر .

٤

كثرة التراجم العلمية والأدبية

لا نكاد نغضى بعد القرن السابع الهجري حتى تكثُر التراجم الأدبية والعلمية ، وخاصة عند العلماء الذين يؤلفون كتب الطبقات ، فقد أصبح سنّة فيما بينهم أن يترجموا لأنفسهم بجانب ترجماتهم لغيرهم ، ومن أشهر من ترجموا لأنفسهم على هذا

النحو محمد بن محمد الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ / ١٤٢٩ م ومحمد بن عبدالرحمن السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ / ١٤٩٦ م والسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م. أما الجزرى فترجم لنفسه فى كتابه «غاية النهاية فى طبقات القراء» وهو يستهل الترجمة بأنه ولد فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بدمشق، وأتم حفظ القرآن الكريم سنة أربع وستين، ثم أخذ فى سماع الحديث النبوى والقراءات وعنى بها عناية تامة، حتى أتقنها، ثم حج فى سنة ثمان وستين وسمع فى المدينة من شيوخها ولم يعد إلى دمشق، بل رحل إلى الديار المصرية فى سنة تسع، حيث واصل دراسته للقراءات السبع وما فوقها، ثم عاد إلى دمشق، ولكن سرعان ما تركها فى رحلة ثانية. يأخذ فيها عن كبار الشيوخ فى عصره، وعاد إلى الديار المصرية، فقرأ بها الأصول والمعانى والبيان على الشيخ سعد الله القروينى، وألم بالإسكندرية، وسمع من علمائها. وأخيراً أذن له بالفتوى وجلس للإقراء فى الجامع الأموى بدمشق وقصده الطلاب من كل فجٍّ. وولى قضاء الشام سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة. ودخل فى آسيا الصغرى يقرئ الأمراء وغيرهم. ووزل ببلاد ما وراء النهر فى خراسان وحل بغير مدينة، تارة يقرئ الناس، وتارة يقضى بينهم، ثم توجه إلى البصرة فبلاد العرب، وطلاب القراءات ينساون عليه انسيالا، ويقول إنه ألف فى نجد «الدرة فى قراءات الثلاثة» وجاور فى المدينة ومكة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، وفى إقامته بالمدينة ألف فى القراءات كتاب «نشر القراءات العشر» فى مجلدين ومختصره «التقريب» و«تحرير التيسير فى القراءات العشر» ويذكر أنه ألف قبل ذلك «شرح المصابيح»، كما ألف غير كتاب فى التفسير والحديث والفقه والعربية. ولا ينسى أن ينوه بما نظمته من المتون فى العلوم المختلفة، ومراً بنا أن ذلك كان إحدى آفات العلم العربى فى أواخر العصور الوسطى، إذ تحول العلماء غالباً لا إلى الابتكار فى التأليف، وإنما إلى إعادة الماضى وتكراره بأسلوب جديد هو أسلوب الشعر، وهو أسلوب لم يُعدّ للعلم والثقافة، وقد جنى ذلك على الشعر الغنائى نفسه، إذ أصبح الشعراء كالعلماء يدورون دوران

مجنون في معان وصيغ محفوظة ، يبدئون فيها ويعبدون ، وقلما جاءوا بفكرة أو معنى جديد .

أما السخاوي فترجم لنفسه في كتابه « الضوء اللامع في رجال القرن التاسع الهجري » ترجمة مسهبية ، ذكر في أولها أنه ولد سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة ، وأهتم به أبوه منذ نعومة أظفاره ، فأخذ يختلف به إلى شيوخ عصره في القاهرة يقرأ عليهم القرآن الكريم وعلومه والنحو والعروض والحديث ، وهو يفصل الكلام في ذلك تفصيلاً واسعاً . وتعلم على الشيوخ كذلك الفقه والفرائض والتفسير ، ويفيض في سماعه للحديث وعلومه ، حتى صار أكثر أهل العصر مسموعاً ورواية ، فقد أخذ عن أكثر من أربعمائة نفس ، ورحل إلى دمياط فسمع بها من بعض المسندين . وحج وسمع بمكة من كثيرين ، كما أخذ عن غير واحد بالمدينة ، ورجع إلى القاهرة ، فأقام بها ملازماً للسمع والقراءة والتخريج والاستفادة من الشيوخ ، وتمثل في البلاد المصرية يأخذ عن العلماء ويفيد ، محصلاً للكتب المختلفة . ثم رحل إلى حلب ، وبعدد المدن التي مر بها ، ومن سمع منهم وأجازوه حتى اجتمع له من المرويات بالسمع والقراءة ما يفوق الوصف ، ويأخذ في سرد ذلك سرداً مفصلاً ، ويذكر لنا بعض مجالسه ، ويقول إنه توجه للحج مع أولاده في سنة سبعين ، وهناك حدثت بأشياء من تصانيفه وغيرها وأملى مجالس (محاضرات) بالمسجد الحرام ، ولما رجع إلى القاهرة أخذ في إملاء بعض تخريجاته وحج في سنة خمس وثمانين ، وجاور سنة ست ثم سنة سبع ، وعاد إلى الحج والمجاورة مراراً ، وحين رجوعه إلى مصر كان يأخذ عنه كثير من الخلائق .

ويذكر أنه شرع في التصنيف والتخريج قبل الخمسين ، ويعرض علينا بعض تخريجاته لكتب الحديث ، ثم يسرد مصنفاته فيه وفي علومه وفي التاريخ وفي مسائل متنوعة من مسائل الشريعة ، ويذكر لنا من أثنوا عليه من كبار العلماء وخاصة المحدثين ، ويسوق ثنائهم وشهادتهم له ، كما يسوق بعض ما نُظِم فيه من مدائح ينوه أصحابها بعلمه وفضله وحسن آيته للحديث حتى غداً عَلَماً فيه ،

وتولى مشيخة تدريسه بمدارسه الكبيرة في القاهرة ، وينهى من ترجمته بقوله :
« وهذا كله وهو عارف بنفسه معترف بالتقصير في يومه وأمه ، خير بعبوبه . .
لكنه أكثر الهديان ، طمعاً في صفح الإخوان » .

وأما السيوطي فإنه ترجم لنفسه في كتابه « حسن المحاضرة في أخبار مصر
والقاهرة » وقال في أول ترجمته إنه يقتدى في الترجمة لنفسه بالمحدثين والمؤرخين قبله
مثل عبد الغافر الفارسي في كتابه تاريخ نيسابور ولسان الدين بن الخطيب في
كتابه تاريخ غرناطة وابن حجر في كتابه قضاة مصر . ويذكر أن جده الأعلى
كان من المتصوفة ومشايخ الطرق . ومن خلفوه من أجداده كانوا من أهل
الوجاهة والرياسة ، أما أبوه فكان فقيهاً على مذهب الشافعي ، ويذكر أنه ولد
بالقاهرة سنة ٨٤٩/ ١٤٤٥ م . ولم يلبث أن توفي والده ، فنشأ يتيماً ، وعلى عادة
أترابه حفظ القرآن ، ثم أخذ في دراسة النحو والفقه والفرائض على كبار الأساتذة
والشيوخ في عصره ، واختلف إلى أصحاب التفسير والحديث والأصول ، ويذكر
بعض من أثنوا عليه من شيوخه .

والحق أن السيوطي يعد أحد العلماء الأفاضل الذين ظهروا بمصر في العصور
الوسطى ، وقد ترك كثيراً من المؤلفات ، حتى نشبه في مجموعها دائرة معارف
كبيرة تضم العارم الشرعية واللسانية والأدبية والتاريخية ، وتحدث عن ذلك فقال :
« شرعت في التصنيف في سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن
ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه ، وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد
الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور . . وأفتيت من مسهل سنة إحدى
وسبعين ، وعقدت إملاء الحديث من مسهل سنة اثنتين وسبعين ، ورزقت التبحر
في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، على طريقة
العرب والبلغاء لا على طريقة الأعاجم وأهل الفلسفة » .

ويقصد السيوطي بطريقة العرب والبلغاء في علوم البلاغة أنه كان فيها لا يعني
بما وصلت إليه هذه العلوم من تعقيد شديد عند متفلسفة العجم أمثال القزويني

والسيد الجرجاني ومن إليهما من أحالوا مسائلها البسيطة إلى مشاكل عقلية على نحو ما هو معروف عند القزويني في تلخيصه ومن شرحوه من أمثال الجرجاني والفتازاني . ولم يكن السيوطي في ذلك شاذاً على أدياء مصر وعلمائها ، بل كانوا جميعاً في عصره يذهبون مذهبه من العناية بالنصوص الأدبية دون الوقوف عند عقد الفتازاني ومن جرى في إثره ، وهو يسمى هذا المنهج طريقة العرب والبلغاء .

وأخذ بعد ذلك يسرد مؤلفاته في التفسير ومسائله وعلى رأسها كتابه «الإتقان» ثم في الحديث وقد أكثر فيه من الشروح على أمهاته القديمة ، ثم في التاريخ ، وقد كتب كثيراً في طبقات العلماء المختلفين ، وكتابه «بغية الوعاة في طبقات النحاة» من أشهر الكتب التي تعنى بتاريخ هذه الطائفة من العلماء . وله في النحو «معجم الهوامع» ويعتد موسوعة كبيرة في هذا العلم ، إذ حشد فيه آراء العلماء المختلفين منذ الخليل إلى عصره في العراق وغير العراق وكتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» الذي ذكر فيه ترجمته من خير الكتب التاريخية . وقد ألف غير كتاب في الأصول وعلوم البلاغة . وألف بجانب ذلك ديوان خطب ومجموعة مقامات ، ونظم في غير فن ، وهو في الحقيقة أعجوبة من أعاجيب مصر في أواخر عصرها المملوكي .

وهؤلاء العلماء الثلاثة ترجموا لأنفسهم في كتب ترجموا فيها لغيرهم . وكثر في عصورهم أن يفرد العلماء لأنفسهم تراجم في كتيبات ورسائل مستقلة . ومن وصلتنا ترجمتهم على هذا النحو حافظ الشام ومؤرخه في القرن العاشر الهجري محمد بن علي بن طولون الدمشقي الحنفي المتوفى سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م فإنه ترجم لنفسه في كتيب سماه «الملك المشحون في أحوال محمد بن طولون» وهو يذكر في أوله أنه ولد بصالحية دمشق في سفح قاسيون سنة ثمانين وثمانمائة ، وتوفيت والدته وهو في المهد وكانت رومية تحسن لسان الأروام ، ونشأ في حجر والده وعمه مفتي دار العدل ، واختلف إلى الكتاب يحفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم الحديث والنحو حتى مهر فيهما ، ويحصى لنا

الكتب التي قرأها عليهم في هذين الفنين وفي الفقه الحنفي والقراءات وعلم الأصول والتفسير والمنطق والطب وعلوم البلاغة .

وكان النظام المتبع في حمل العلوم أن تعطى فيها إجازات ، يشهد فيها الأستاذ لتلميذه بحسن تلقيه وأنه حرى أن يروى العلم عنه ، وهو يسرد علينا كثيراً من هذه الإجازات التي منحها له أساتذة عصره في الشام وغير الشام فقد رحل إلى مصر وأخذ عن السيوطي أكثر كتبه في الحديث والنحو وغيرهما ، يقول :

« ومن أزداد الاطلاع على معرفة ماتيسر لي نوعُ إمام به من أنواع العلوم فعليه بكتابي المسمى بالؤلؤ المنظوم ، فأني ذكرت في كل واحد منها ما تيسر لي من رسمه وموضوعه وغايته ، وعمن أخذته وماذا كتابي فيه ، وما لي فيه من تأليف إلى حين وضعي لهذا المؤلف . . ومجموع ما ذكرت فيه من العلوم ثمانية وثلاثون علماً .. وفي ضمنها علوم آخرَ تزيد مع هذه على اثنين وسبعين علماً . وقد كتب لي كل واحد من هؤلاء الأشياخ ممن اشتغلت عليهم في هذه العلوم إجازة وبعضهم إجازتين ، وبعضهم ثلاثاً ، جمعها في مجلدة . . خلا بعض الإجازات كتبت على الكتب المقروءة » . ويذكر لنا صوراً من الإجازات التي منحها له شيوخه ، يقول :

« فنها ما كتبه لي العلامة الشمس بن رمضان حين قرأت عليه ألفية علوم الحديث وتلخيص المفتاح في علم المعاني ومضاهيه ” البيان والبديع “ : قرأ عليّ الشيخ الإمام الفاضل البارع المتقن المحصل الذكي الأملئ اللوذعي محمد ابن طولون — جعله الله من عباده الصالحين ، وورقه العلم ، وجعله من العلماء العاملين — جميع هذا الكتاب وهو تلخيص المفتاح في كذا ، وكذا أيضاً قرأ الأرجوزة المنسوبة للعلامة الزين العراقي في علم الأثر ” الحديث “ قراءة بحث وإتقان وتحرير وإمعان ، وورّختها في مجالس آخرها في ذى القعدة سنة سبع وتسعين وثمانمائة بالمدرسة القجماسية داخل دمشق المحروسة بحضرة جماعة من الطلبة . وقد أجزته بمذاكرته ما قرأه من التمه منه ، مع ما يجوز لي روايته بشرطه » .

وكان لا يقعد لإملاء الحديث النبوي خاصة إلا من شهد له شيخ بمثل هذه الإجازة حيطة وحذراً حتى لا يرويه من لا يحسنه أو من كان مجرداً . ومن أراد الاتساع في معرفة طرق رواية الحديث فعليه بالكتب الخاصة بمصطلحه ، فإنه واجد لروايته شروطاً وقواعد تشدد فيها القوم تشدداً واسعاً ، حتى غدت علماً معقداً من علومهم .

ويحدثنا ابن طولون بعد ذلك عن الوظائف التي تولاها ، وهي تدور على تدريس القراءات والحديث والفقه في مدارس ومساجد مختلفة ، وعُهد إليه أحياناً بخدمة الكتب والقيام عليها كما عهد إليه بالنظر على بعض الخرائق والحبوس أو الأوقاف ، وتولى غير مشيخة ، وكان يتقاضى في بعض وظائفه المتعددة خمسة عشر عثمانياً . ويتنقل من بيان ذلك إلى سرد مؤلفاته الكثيرة في كل فن ، ورتبها على حروف المعجم ، وهي تستغرق من الكتيب نحو عشرين صحيفة ، تلاها بما قيل في مدحه وفضله وعلمه من شعر ونثر .